

طانيوس نجيم - جامعة الروح القدس الكسليك

بمناسبة "يوم سعيد عقل" - ١٩ تشرين الثاني ٢٠١٤

سعيد عقل ولبنان - الحلم

صاغ سعيد عقل حلمًا اسمه لبنان، فإذا بالمؤمنين به يتزايدون إلى حدّ الاقتراب من الشموليّة، بفعل استبطان الشعر الأصيل وتنامي القناعة الوطنيّة. في لبنان إن حكى، يطالعنا كان لدى سعيد عقل رؤيا نبويّة وما يكفي من الحرارة لتحسيسها شعراً والالتزام بتبعاتها حتّى النهاية. وظفّ طاقاته كلّها للدفاع عن قناعاته الوطنيّة التي كان من شأنها خلق تيارٍ وطنيٍّ ملتزم وتأمين المناخ الفكريّ والشعريّ والفلسفيّ المؤاتي له. أتمى أدبه، لاسيّما ذاك الذي واكبته الألحان الرحبانيّة وصوت فيروز الملائكيّ، إيماناً قوياً بلبنان. صاغ حلمًا اسمه لبنان، فإذا بالمؤمنين به يتزايدون إلى حدّ الاقتراب من الشموليّة، بفعل استبطان الشعر الأصيل وتنامي القناعة الوطنيّة. يظهر حلمه في معظم مؤلفاته: في لبنان إن حكى وأرضيته الملحميّة الميتولوجيّة؛ في قدموس المسرحيّة - النشيد الوطنيّ بامتياز؛ في ديوانه بالفرنسيّة: *L'or est poèmes*؛ في مؤلفاته باللغة اللبنيّة والحرف اللاتينيّ: يارا؛ وحماسيّات؛ كذلك في قصائده الوطنيّة ...

إسمحوا لي أوّلاً بالتعبير أمامكم عن شعوري بعدم الأهليّة للحديث عن عبقرّي من طينة سعيد عقل في تاريخ الفكر اللبنيّ. لكنني أجد لزاماً عليّ وفاءه بعض حقّه علينا جميعاً، لاسيّما في هذه الجامعة الحبيبة التي أسهم في اختيار الاسم الذي يميّزها وهي تعترُّ بحمله في العالم الأكاديميّ.

I - لماذا سعيد عقل؟

طبعاً هو التكريم الواجب الذي تدعوننا إليه الليتورجيا المارونيّة، إزاء الآباء العظام الذين صنعونا في جزء كبير ممّا نحن عليه. لكنّه بالقدر نفسه واجب ملحّ إزاء الأجيال الطالعة، تطلّع إلى المستقبل وثقة بقيّة باقية من الرجولة والإبداع والإيمان، تملي علينا أن نبرز أمام نشئنا الصاعد وجهًا ناصعًا، مثلاً وقدوة تضيء العزائم المربكة وتنعش الرجاء في القلوب المنقبضة، وجهًا ليس كالوجوه الكالحة التي تتحكّم مصالحها بمصير الوطن وتقضي على بقيّة الأمل التي لا تزال عامرة في بعض نفوس أبنائه المتشبهين بإيمانهم على الرغم من الغيوم المدلهمّة والظلمات التي تسدّ الأفق. هناك عباقرة يتماهون مع أوطانهم وشعوبهم. على غرار هوميروس واليونان، فرجيليوس والرومان، زرقنا جبران، واليوم سحابة قرن من الزمن، وإلى أجيال وأجيال، سعيد عقل ولبنان. لكلّ هذا أسعدني أن أسهم في تكريم من كرم لبنان وصاغه حلمًا يدغدغ خيال أجيال محبّيه ما دام للكلمة وقعها في النفوس المتعطّشة إلى الخير والحقّ والجمال.

أُيُّها السادة،

خلق الله الكون من العدم، وأنعم على الإنسان بأن يطلق أسماء على الكائنات؛ ما يعني أنه دعاه منذ البدء إلى المشاركة في عمليّة الخلق وإكماله بإسباغ وجود ذهنيّ على الكائنات. إذا كانت هذه الدعوة موجّهة إلى كلّ إنسان بعامة، فما أحرى بما أن تكون ميزة الشعراء بخاصّة، لاسيّما الشعراء الذين يصفون على الجمال الطبيعيّ جمالاً شعريّاً، بل يستنبطون أحياناً من الواقع مُثلاً، ومن القبح جمالاً. الشعر المبدع، كما شعر سعيد عقل في لبنان، إعادة لعمليّة الخلق من جديد؛ هو تجسيد لأحلام ومثل في كلمات وصور وأنغام، هو استحداث وجودات، بل كائنات من نسج الواقع والخيال.

إذا ما استعرضنا التاريخ، لوجدنا لبنان ضارباً في أعماقه منذ القدم، منذ عهد الكتاب المقدّس ومحرّماته ومقدّساته على السواء. أمّا الجمهوريّة اللبنانيّة، بالمفهوم المعاصر، فحديثه العهد، برزت إلى حيّز الوجود السياسيّ المعترف به دوليّاً، مع إعلان الجنرال غورو دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠؛ وهي، للأسف، بفعل عوامل مختلفة، لا تزال حتّى اليوم في مهبّ الريح التي تعصف بها من الخارج والداخل دونما هوادة. منذ لحظة إنشائها، هناك من ربط مصيره بوجودها وركّز جهوده على الدفاع عنها وبلورة تميّزها، في حين لم يبرح آخرون يعملون على رفضها والتنكّر لمكوّناتها، ومحاولة تقسيمها وتفتيتها إن لم يكن هدمها وإزالتها من الوجود وإحاقها بكيانات غيرها.

في خضمّ هذا المعترك الإشكاليّ، برز، سحابة ما يقارب قرناً من الزمن، شعراً سعيد عقل وأبرز في طيّاته تصوّراً للبنان، حلماً ما لبث أن راود كوكبة من العباقرة في ميادين متنوّعة لاسيّما الموسيقى والغناء، على غرار ما أنشده الرحابنة وفيروز ووديع الصافي ونصري شمس الدين وفيلمون وهيي وصباح وماجده الرومي وغيرهم الكثير الكثير، فضلاً عمّا بلورته باقة من الأدباء والشعراء الذين تحلّقوا حول حامل الراية الأوّل، مايسترو السمفونيّة والقائد المبدع. على خطى أسلاف رواد من اللبنانيين الذين أسهموا في إنحاض الثقافة العربيّة من سباتها، على غرار البساتنة بدءاً من المعلّم بطرس انتهاءً إلى فؤاد افرام مؤخّراً، مروراً بجبران وأبي شبكة ونعيمة وشارل مالك والعديد من النوابع الذين يتعذّر ذكرهم أجمعين في حدود هذه المداخلة، صاغ سعيد عقل ومن غنّى قصائده أو استلهمه أو تتلمذ عليه أو قلّده صورة للبنان نفذ بريقها إلى أعماق الضمائر وأيقظ ألقها وعيًّا لقيم ومثل وعنقوان تميّز بها الشخصية اللبنانيّة الأصيلة، وتعلو قيمتها لاسيّما عند مقارنتها بما آل إليه الواقع اللبنانيّ اليوم من انحطاط إلى أقصى دركات الفساد والبشاعة بسبب تخاذل قادته، إن لم يكن بسبب تواطئهم، وعجز كتابه وملهميه عن النقد وإعادة بناء النفوس.

أين لبنان اليوم من حلم سعيد عقل؟ لبنانه نابع من أعماق التاريخ؛ تصوّره مثلاً واجب الوجود، لا يوصف إلاّ بذاته، متمرّداً على كلّ التبعيّات. أخذ عليه بعضهم القول بهذه الاستقلاليّة شبه المطلقة. لكنّ الجميع ينادون اليوم بواجب أبنائه، جميع أبنائه، النأي بالنفس عن كلّ الاصطفافات. وما أحرى بنا، جميعاً، تطبيق هذا

النأي، ليس فقط على الصعد الخارجيَّة، بل أيضًا على الصعد الشخصيَّة والوطنيَّة الداخليَّة، من حيث المفهوم الأنثروبولوجيِّ لذواتنا! أوليس كلُّ منَّا مخلوقًا على صورة الله، متميِّزًا بالوعي والحرِّيَّة؟ فما بنا نتنازل عن هذا الكيان الأنثروبولوجيِّ الواعي والحرِّ ونرهنه بانسحاق متأدج أقلُّ ما يوصم به أنه تبعيَّة عشوائيَّة واصطفاف أعمى يفقد الشخص كيانه الحرَّ وغائيَّته الذاتِيَّة! أيًّا يكن قادتنا ومستواهم الفكريُّ وتجردهم وإخلاصهم الوطنيُّ، من المعيب أن نترنَّم لخدمة مصالحهم الخاصَّة ضارين عرض الحائط بالمصلحة الوطنيَّة العليا، مغفلين الخير العامَّ المنزَّه عن لعبة الأنانيَّات. من هذا المنطلق يجدر بنا أن نتبصَّر بلبنان - الحلم الَّذي ينبض في كتابات سعيد عقل، وأن نجدد في ضوئه ما يتحتَّم علينا من مفهوم أنثروبولوجيِّ لذواتنا، متحرِّر من أيِّ تبعيَّة أو اصطفاف.

يعبِّر لبنان سعيد عقل عن رؤية يتزاج فيها الواقع والخيال. إن لم يكن لبنان وجودًا فعليًّا على أرض الواقع، فهو ما يجب أن يكون. قد لا تشاركه الطرح أو تعترض على بعض آرائه وتصفها بالطوباويَّة والغلوِّ والعصبيَّة. لكنَّها، كما الهوى الَّذي بيدع العظام، على حدِّ قول هيغل، تمتلك الكيان وتحرِّكه إلى تحطِّي المألوف والعاديِّ وإحراز العجائب. من هذا القبيل، لا أجد غضاضة، لاسيما في هذه الأوقات العصيبة حيث استولى الإحباط والقنوط واليأس على همم أجيالنا الطالعة وإيمان شبَّاننا بذواتهم ووطنهم ورسالته الإبداعيَّة المميَّزة، في العودة إلى صورة لبنان - الحلم كما رسمها سعيد عقل في نتاجه الأدبيِّ والشعريِّ.

II - إستدراك واجب

قبل استجلاء معالم هذه الصورة المثاليَّة في نتاج سعيد عقل، لا بدَّ لنا من الإشارة مسبقًا إلى أنَّ تركيزه على لبنان لم يمنعه من التطلُّع بعين التقدير إلى الغنى الإنسانيِّ الَّذي تذخر به كيانات مجاورة، سمَّها إن شئت عربيَّة. في هذا الإطار، لا يضيره في شيء الكشف عن لفتات إلى الآخر في مسيرته الإبداعيَّة. قد تكون استهوته في بداياتها حركات استقلال وتطلُّعات نهضويَّة عربيَّة ونزعات قوميَّة سوريَّة. لكنَّه سرعان ما وجد ضالَّته في الالتزام بالقوميَّة اللبنانيَّة. لئن قُيِّض له أن يتوسَّم بشائر يقظة في ما حوله، فإنَّها لم تكن قطُّ كاليقظة المزعومة حاليًّا والمتجسِّدة في لوحات يشوبها الطغيان والعنف وتصبغها الدماء؛ بل إنَّ اليقظة الَّتِي تملَّكته واستحوزت على كامل اهتمامه هي إشراقة لبنان أو ربيع الدائم؛ ولا غرو فالربيع، في نظره، إبداع وعطاء، كرامة وعنفوان. أشعَّت أنواره، منذ فجر التاريخ، في صور وصيدا وبيبلوس وبعبلك وبيروت، وحواضر - منارات زرعت في الثغور والرؤوس على مدار حوض المتوسط؛ وتألَّقت في أحلام فخر الدين وتطلُّعاته إلى ما وراء الأفق وشروذ الضمير؛ وتبلورت في العاميَّات والانتفاضات والتحرُّكات الشعبيَّة الَّتِي ما برحت تهدف، من جيل إلى جيل، إلى إحقاق الحقِّ وإزالة الظلم ونشر الثقافة والعدالة والحرِّيَّة. ولم يقتصر الحلم على الماضي القريب فحسب، بل أضاء على مدى التاريخ، ولن يجبو وهج تراثه في المدى المنظور طالما قُدِّر له عباقرة من طينة سعيد عقل يحملون مشعل الرسالة إلى الأوتاق العصور.

هذه هي الصورة التي تبلورت في شعر سعيد عقل. ولا يزال لدينا بصيص أمل ألا تضيع البذور التي زرعها في يباس العقول المتحجرة وتفشي الفساد وتصخر المصالح الأنانية: هي صورة قوامها وعي مميّز لكرامة الإنسان وحقّه بالعيش في وطن حرّ، سيّد، مستقلّ عن محيطه سياسيًا، متفاعل معه ومع العالم الأوسع بأسره على الصعيد الثقافيّ.

هذه قوميّة سعيد عقل اللبنانية؛ التزم بها ولم يتوانَ قيد أملة عن الدفاع عنها والعمل بكلّ ما أعطي من قدرات ووسائل على تحقيقها. إلا أنّ الالتزام بالقوميّة اللبنانية لم يمنعه من الاعتراف والإشادة بأجداد عربيّة؛ وهذا إنجاز يُعتدُّ له، لاسيما إذا قابلنا موقفه بمواقف عربيّة مغايرة. غنّي شام المجد ويردى؛ غنّي مكّة وأهلها الصيد؛ غنّي القدس؛ غنّي مصر وملهميها العمالقة من عزيز أباطه إلى أحمد شوقي. إلا أنّه ما انفكّ ينطلق من أرضيّة لبنانيّة صلبة ليحلّق في آفاق عربيّة أصيلة، بل عالميّة إنسانيّة شاملة. لئن قال في الشام ما لم يقله أبناؤها:

سائليني حين عطّرتُ السلام: كيف غارَ الورْدُ واعتلَّ الحزام،

وأنا لو رُحْتُ أسترضي الشذا لانتنى لبنانُ عطراً، يا شام!

فهو يحتم قصيدته بالقول:

أنا حسبي أنّي من جبلٍ هو بين الله والأرضِ كلام.

قممٌ كالشمس في قسَمَتِها تَلِدُ النورَ وتُعطيهِ الأنام.

أجل، لم يمنع حبُّ لبنان سعيدَ عقل من الإنشاد للعرب، وقد يكون جديراً به ومشرفاً للعرب أنفسهم أن يُذكر حين الكلام عن الإبداع والوفاء.

سحابة قرن من الزمن، أسهم سعيد عقل إسهاماً حاسماً في إيقاظ وعي لبنانيّ أكيد، بما ضمّنه كتاباته من عنفوان وكرامة وحسّ وطنيّ، ما كان له فعله في النفوس، فحفّزها على التمسك بالحرّيّة والديمقراطيّة والحفاظ على الحقوق الأساسيّة للإنسان. أولاً يمكن اعتبار عمله بناءً للتمييز اللبنانيّ وإنشاداً لربيع لبنانيّ مبكر سرعان ما غدا نهجاً مميّزاً للحرّيّة والتعدديّة والديمقراطيّة في الشرق، حتّى أمكن الطوباويّ يوحنا بولس الثاني القول فيه: إنّه أكثر من بلد، مساحة حرّيّة ولقاء إنسانيّ؟

– مؤلّفات تنجوهر حول لبنان

ألم لبنان عبقرية سعيد عقل، فقال فيه ما لم يقله عاشقٌ متيمٌ بحبيته، وخلّد اسمه في مؤلّفات يسهم كلٌّ منها في بناء الشخصية اللبنانية على طريقته الخاصّة. وعليه، إذا أمكن إدراج تكريماً لسعيد عقل كفعل تكريم

للبنان وإحياء لرسالته الدهريّة التي تعلو على صروف الدهر وتقلّبات الأزمنة، يجدر بنا استعراض هذه المؤلّفات واستقراؤها العناصر التي يُبنى منها الكيان - الحلم. وفي البدء، يقتضي العود إلى حيث ارتوى العقل إلهامًا ونبوغًا.

- أصداء نشأته الرحليّة على العنفوان في شعره

العبقريّة لا تُفسّر؛ لكنّها تقبل المقاربات. هي هبة من الله ودعوة ومسؤوليّة. عوامل عديدة تتفاعل في تكوينها: الوراثة والتاريخ والبيئة والفرادة الخُلقيّة والحُلقيّة ويد العناية الإلهيّة واستجابة الشخص لما تولّف فيه نتيجة كلّ هذه العوامل من دعوة مميّزة. في هذا المجال، حسي التذكير بأنّ سعيد عقل قد نشأ وتربّى في زحلة على الإبداع وحبّ لبنان منذ صغره وطفولته. تألّفت أذناه طفلًا ويافعًا مع أناشيد زحلة:

زحلي يا دار السلام فيك مربي الأسود

عالظيم والله ما بنام الموت بوز البارودي

لذلك، لم يكن بالغريب عليه في تلك التربة الخصبة بالعباقة والمبدعين، وفي تلك البيعة الحافلة بأساطير البطولة وأحلام الطامحين، أن يتكر أشعارًا تنضح بالوطنية في قصائد خالدة تبرعت بشائرها في مأساة قدموس وملحمة لبنان إن حكي ومؤلّفات تصبّ كلّها في دفق وطني وتمييز لا يضاهاى.

• أ - لبنان إن حكي

على غرار بناء الأوطان، ينشد سعيد عقل أرضيّة ملحمة لوطنه، يلور شخصيّة قاعدية لشعبه تعمر بالميثولوجيا وتعقب بشذا الأساطير. من هذا المنطلق، أبداع ملحمة ثقافية هي لبنان إن حكي. يقول في مقدّمة الطبعة الثانية: "سياحة في لبنان - لبنان الحضارة! [...]. مجلّدات ضخمة من التاريخ ستظلّ تنتظر من يؤلّفها. وهذه الشيطان والربى إنّما أقيمت عليها مؤسّسات لا يثمن فضلها. كانت الأولى. وكأتمًا في البدء كانت. من أرض هي، وأحيانًا من أفرادٍ لهت أصابعهم بالمعمور. هنا وُلد أو قال أو عمِل نفر من آلهة المعرفة". هي ملحمة الحضارة إذًا، وأبطالها آلهة المعرفة. في هذا الإطار الأسطوريّ يُنسج التاريخ ويُحاك على منوال المعرفة ليحاكي العقول إلى عصور وعصور.

- بناء النفوس

هكذا، كان لا بدّ من بناء النفوس قبل أيّ عمران آخر. الإنسان هو ثروة لبنان وغناه. بهذه القناعة عمل سعيد عقل على بلورة ما يتصوّر جوهر الكيان اللبناني وما يجب أن يكون عليه المواطن اللبناني ليستحقّ الانتساب إلى هذا الوطن. الشعر يخلق وعيًا يجب أن يتحلّى به اللبناني ليكون أهلاً للرسالة التي يأتمن عليها وطنه.

التحدّي اللبنانيّ يقوم في نظر الشاعر على ريادة الحركة التثقيفيّة في العالم. يصرّح معترّاً بتراث بيروت: "عندما تُذكر أشياء الفكر، الفكر في مناخاته العالية، لا تحظر على البال سوى مدن قلائل. منها بيروت. فإذا كانت أثينة اختصّت بالحكمة، وفلورنسا بالجمال، وباريس بالذوق فإنّ بيروت اختصّت بالحقّ. الحقّ؟ وهل بعده بعد؟

• سرُّ التميّز اللبنانيّ

ونتساءل مع الشاعر في بحثه: "لماذا نحن هذا؟ بأيّ درية تمرّسنا على الزمن؟ أيّ القيم يرثها اللبنانيّ منذ ما تفتح عيناه على بادرة الأمّ والأب؟" (ص ١٤) فيجيب: "وراء الفرد، عندنا، أربع من البؤر العقليّة التي كان نشاطها، على الزمن، هو الحضارة... صيدون، القدس، أنطاكية، دمشق، بؤر عقليّة أربع لا تنكفي على ذاتها بل تروح تتحاك والعقل العالميّ... من صيدون إلى دمشق مرّاً بالقدس، فأنطاكية، فتشابكاتهما بعواصم العالم العقليّة، تراكم إرثٌ قدير نيرٍ محبّبٌ قد تكون غفلت عنه، في زمن من الأزمان، مدُن الخير الأربع، فتتركت أنطاكية، وتبدّت دمشق وصيدون، وتصهينت القدس، ولكنّ لبنان ما انفكّ على الزمن يحتضن ذلك الإرث بحرص، موفّراً له المضىّ في أبحاهه الذائيّ الفدّ، مؤمّناً له - لانفتاحه - لفتاتٍ وساعماً كالوجود صوب كلّ تقدّم في الوجود.

"هذا هو الإرث الذي يكوّن لبنان وذاتيّته وثرأه العقليّ، ويحدّه بأنّه "ما وراء" تخوم وعرق ووحدة أيّ تاريخ كان" (ص ١٤-١٥ - ٢٠-٢١-٢٢). من هذا المنطلق يمكننا التنويه بهذه الصورة للبنان الحضارة؛ إنّ هي إلاّ دفق حضاريّ دائم منذ البدايات وعهود التجدّر وإنجازات الجدود والألى، تكمن أهمّيّته في كونه يستبطن تراث أنطاكية ودمشق وصيدون والقدس في عمق جذوره؛ والأهمُّ أنّه برّ بها ولم يتقاعس يوماً عن إنماء البذور الموروثة وتلقيحها وإغنائها على يد عباقرة يخلّدهم سعيد عقل لأنّه من طبيّتهم، فإذا بالزرع المستديم يُزهر ويشمر. وعسى، اليوم، وفي الغد، أن يستجيب الثمر لأحلام الزارعين!

• ب - مسرحيّة قدموس

لئن كان الإرث الملحميّ متألقاً في لبنان إن حكى، فإنّ شعلته تُضرم في مسرحيّة قدموس التي تذخر بالوطنيّة والإبداع، وتحافظ على ألقها من جيل إلى جيل، عابقة بنفحة بطولة وكرامة وعنفوان أين منها خنوع التبعيّن وتحدّر نفوسهم بنخاسة المصالح الصغيرة والأهواء الدنيئة. ألا ليت تجار المصالح والمتخاذلين يرعوون، ومدّعي القيادة والريادة يتعظون! تجسّد مسرحيّة قدموس مدرسة في القيادة، ولا أبلغ. فيها ذروة التغيّ بلبنان وتراثه وقيمه الثابتة على الزمن. في المقدّمة، يطالعنا الشاعر ببحث يطلق عليه عنوان: "خلاصة لبنانيّة"؛ ويستهلّه بهذين البيتين المعبرين:

سوف نبقي، يشاء أم لا يشاء الغير، فاصمد، لبنان، ما بك وهنّ

سوف نبقي، لا بدّ في الأرض من حقّ وما من حقّ ولم نبق نحن

- رسالة لبنان الأصيلة

ثمَّ يجري نقاشٌ بين قدموس وأعمى البيوسى، يعرّف فيه قدموس بشعبه قائلاً:

نحن غير الغزاة؛ نزل قفراً
نزرع المدن، نزرع الفكر في الأرض،
فنخلّيه أهنراً وجنائز،
وغمضي في الفاتحين مثالا؛
وغداً تعرف الحضارة في صيدون
أمّا، فتنحني إجلالاً!

أجل، إنّ رسالة اللبنايين الأصيلة لم تكن يوماً إسعار نار الحرب وتأجيحها. هكذا تفهم أوروب، شقيقة قدموس، رسالة بلادها:

بلادي أنا، ولبنان عهد!
ليس أرزاً، ولا جبلاً، وماء؛
وطني الحب، ليس في الحبّ حقاً.
وهو نورٌ فلا يضلُّ: فكّد،
ويدّ تبدع الجمال، وعقل.
لا تقل "أمّتي"، وتسطو بدنيا؛
نحن جازّ للعالمين وأهل!

كذلك تحدّد مري، مربيّة أوروب، رسالة قدموس في السياق عينه:

جاء قدموس بالكتابة، بالعلم
إيهم، إلى الأواقي العصور،
وغداً يعرفون أنّا على السفن،
حملنا الهدى إلى المعمور.
ما تقولين لو تُسمّى بلادُ الغرب
أوروبّ؟! "

ثمّ تقرن القول بالفعل وتنقّد مشيئتها بعد تعجّب أوروبّ وتساؤلها، فتقول:

كُن، يها الصقع، باسم أوروبّ، أرضَ اليمن،
أرضَ النهى، وأرضَ الجمال.

كلُّ هذا يعبر عن الشخصية اللبناية على سجيئتها وأصالتها. لئن كان اللبنايُّ مغامراً يجوب المعمور، فهو يبقى مسالماً، رائده الإعمار والتنوير. يقول سعيد عقل في هذا الصدد:

ومن الموطن الصغير، نرود الأرض،
نذري، في كلّ شطّ، قرانا
نتحدّى الدنيا: شعوباً وأمصاراً،
ونبني - أئى نشأ - لبنانا

نكتفي بهذا القدر من قدموس علماً بأنّها أشبه بملحمة رائعة بما تحتويه من عنفوان وطنيٍّ وأبعاد ثقافية. إنّها عمارة مسرحية شعريّة، بل بيان أو دستور وطنيٍّ مميّز.

د- مؤلّف بالفرنسيّة

لا حدود لغويّة لنبوغ سعيد عقل. أفصح عنه باللغة العربيّة الرسميّة، وباللغة اللبناييّة، كما سوف نرى لاحقًا؛ وخاض غماره باللغة الفرنسيّة، مفسحًا لعبقريّته تحدّي النديّة مع كبار الشعراء الفرنسيّين على غرار بول فاليري (Paul Valéry). ولم يتوان، حتّى في هذا المضمار، عن التغيّ بلبنان وتراثه. تشمل ذهنيّة الوفاء للتراث وبناء الغد على أسس حضاريّة مشرقة جميع مؤلّفات سعيد عقل. في مؤلّف له بالفرنسيّة بعنوان *L'or est poèmes* يجد الفرصة لإحياء التراث الفينيقيّ والتغيّ بلبنان.

يقول في قصيدة بعنوان: الإبداع الفينيقيّ

« Le Créer phénicien
Créer ! Qu'est-ce ? Les Grecs n'osèrent
S'en offrir l'or. Ouir si fin
Qu'un Olympien, doigts divins,
Puisse l'amarrer, le Mystère.
Nous Phéniciens, fendant mer,
Fendîmes ciel, signant le pacte
De prendre en flagrant délit l'acte,
Entre le Rien et son revers.
Et déchiffrant *offrir, offrande,*
Offrant, comme les épelant,
Ces beaux grains d'alphabet moins lents,
A nous les énigmes se rendent. [...]
Le faire de Dieu se dévoile
A nous, si libre, si parfait.
Qu'en sautant de pensée à fait,
Il est à nous trirème à voile »¹

وفي قصيدة بعنوان: "عمودا ملكارت" Les Deux Colonnes de Melqart يتغنّى باجتياز السفن الفينيقيّة مضيق جبل طارق حاملة معها من جبيل لبنان للعالم رسالة سلام وتنوير وتديّن.

« Melqart, général d'El qui conquerra le Monde,

¹ 8 *L'or est poèmes*, Naddaf, Beyrouth, 1981, p. 172-173.

Se trouve maintenant au bord de l'océan.
Sa flotte, en ce détroit où l'on voyait néant
L'après, où l'on croyait, dense de tombeaux, l'onde.
Lui, preux phénicien, savait que c'était faux.
[...] La conquête sera de paix, non de misère.
Et le doigt de Melqart, orgueil de ses soldats,
Telle son ombre un jour sur la mer, leur empire,
Indique un marbre. Quoi ! nos architectes virent
Deux continents devenir rien que véranda
D'une Guébel plus grande en qui Dieu vagabonde,
Ame d'un beau Liban s'éparpillant beau monde ?
Non ! Ils virent plutôt deux terres d'oliban,
Seuil d'un temple où la toute humanité croyante
Se prosterner bras, torses, cèdres et rentes,
Devant le jeune dieu qui viendra du Liban. »²

هـ - مؤلفات باللغة اللبنايية والحرف اللاتيني

أدّى حبُّ لبنان بسعيد عقل إلى المناداة باعتماد اللغة اللبنايية والإبداع فيها وكتابتها بالحرف اللاتيني، على غرار ما أفترّه مصطفى أتاتورك بالنسبة إلى اللغة التركيّة. قد تشاركه الرأي أو تعارضه، في هذا المضمّار بالتحديد؛ لكنّك، وإن خالفته، لا تستطيع إلاّ الانحناء أمام حبّه للبنان إلى حدّ العبادة، وجرأته الخارقة وقرنه القول بالفعل، هو المبدع باللغة العربيّة الفصحى، باعتراف أساطينها. ينقل رثيف خوري عن سعيد تقي الدين قوله: "إنّ سعيد عقل أعظم من كتب النثر في العربيّة"؛ وعن أنطوان قازان قوله: "ما خفت على نثره من شعره، بل أعجبتُ لثنائيّة في الإبداع"³. من مؤلفاته باللغة اللبنايية، على سبيل المثال يارا وخماسيات.

• يارا

بالفعل، أصدر سنة ١٩٦١ مؤلّفًا شعريًّا بعنوان "يارا"، باللغة اللبنايية والحرف اللاتيني؛ وهو مجموعة قصائدٍ حبّ تتميّز بالعفويّة والبساطة والحسّ المرهف. أكتفي بذكر إحداها، وهي بعنوان "يارا":

² 9 *L'or est poèmes*, Naddaf, Beyrouth, 1981, p.314

³ سعيد عقل: شعره والنثر، ٥، الصفحة التي تلي صفحة العنوان.

يارا،

يارا جدايلها شقر،

لفيهن بيتمرجح عمر،

وكلّ نجمي تبوح بسرارا...

يارا،

لحلوي، لغفي عازندا حيا الزغير،

وضلّت تغني والدني حدّا تطير

والرياح تدوزن وتارا^٤.

• خماسيات

في الإطار عينه، نشر سنة ١٩٧٨ مجموعة أشعار باللغة اللبنانية بعنوان "خماسيات" كان قد صدّر بكلّ خماسية منها مجلّة بعنوان "لبنان"، وهي تتميز بكثافة أشعارها وسلاسة معانيها ومواقفها الوطنية الحريئة يوم عصفت الرياح بأهل لبنان فراحوا يمزقون وطنهم.

لا يضيره أن نقرّ، في هذا السياق، بأنّ آراءه لم تحظّ بإجماع لبنانيّ، لاسيّما في ما يتعلّق بتوجّهه السياسيّ وقوله بتميّز الهوية اللبنانية؛ وقد ناهض رأيّه العديد من اللبنانيين لإفصاحه عن تصوّر خاصّ للبنان يتعارض مع توجّهاتهم. إلّا أنّ ذلك لم يمنعه من السير بمقولة لبنان الفريد المميّز إلى خواتمها. دافع عنها بكلّ ما أوتي من إمكانات: شعراً ونثراً وعملاً إعلامياً وتوجيهاً وطنياً وسياسياً وثقافياً... ولئن كان صحيحاً أنّ فريقاً كبيراً من اللبنانيين ناصبه العداة بسبب مفاهيمه اللبنانية: القومية اللبنانية، لبننة العالم، أزليّة الكيان اللبناني...، فإنّ اللافت للانتباه أنّ جميع اللبنانيين قد أقرّوا في اتّفاق الطائف بنهائيّة الوطن اللبنانيّ ودوامه، الأمر الذي كان الفريق المعارض على مقولات سعيد عقل يرفضه منذ قيام الكيان اللبنانيّ؛ أكثر من ذلك، إنّ العديد من أفراد هذا الفريق، بل بعض جماعته بأكملها قد انتهوا في الحقبة الأخيرة إلى المناداة بمقولة "لبنان أوّلاً"؛ ما يجعلهم من المقترين من أفكار سعيد عقل، بل من المتحوّلين إلى توجّهه. عسى أن يشمل هذا التوجّه جميع اللبنانيين بدون استثناء، فيديروا الظهر للاصطفافات العمياء والارتھانات الخارجيّة!

^٤ سعيد عقل، يارا، مكتبة أنطوان، بيروت، ١٩٦١ ص ٤٤-٤٥

– القصائد الوطنية

وأخيراً ليس أفضل من قصائد سعيد عقل الوطنية للتعبير عن لبنان – الحلم الذي دغدغ مخيلته. لعلّ الإصغاء إليها أبلغ سبيل لإدراك عمق محبته لوطنه وتعلقه به وتصوّره المثاليّ له. من الأمثلة على قصائده الوطنية، مطوّلة تاريخيّة بعنوان: "فخر الدين"، يقول فيها:

حُلْمٌ في خيال لبنان رُحْبٌ، رعرعته فينيقيا في الصدور:

سُفُنٌ تمخرُ العبابَ وتُبقي الهرقليّاتِ، خلفها في قصور،

تزرعُ المدنَ في الشطوطِ، تريّ قاهرَ المستحيل رمزَ القدير.

في السياق عينه، يتضمّن "كما الأعمدة" قصائد كالقلاعِ روائعٍ من وحي قلعة بعلبك، مرصوفةً بالشعر الوطنيّ المتقن البناء. حسبي أن أذكر منها ما قاله في تحليل مطران:

ما الموت؟ شمخه رأس منكَ تُفتقد واسلم بباقة شعري، عطرها الأبد!

مهابة الأرز، بنت الفارسي، أنا نبيك، فلتغاور السبته العمد.

ومن ترى قال: ليست سبعة؟ أنذا عيني إليك، ألا فليكمّل العدد.

وما قاله في ذكرى شبلي الملائط:

سيفٌ على البطل أم شيمائك الخرم؟ – يا شعراً خلّد – وسيفٌ ذلك القلم!

ما لي أعنيك: أهلي النور منبتهم، عالون كالأرز، جار الله، ما زعموا

ما نكسوا هامةً إلا لخالقها، إلا للبنان ما دانوا وما احتكموا،

في إثرهم أنا، دنيابي الجمال، وإن باعدت فالسفح من لبنان والقمم،

إلا إليك، إلهي، ما مددت يدي أجوع؟ من شرفي خبز ومغتنم؟

كذلك، تلفتني أبيات من قصيدة "اللون الآخر"، ليلة تذكّر الرفاق عمر فاخوري:

حبيبتك تُغني العصر، تُطلقه على الرياح، تُمنّيه بإكتار إقلال،

تلقنه كيف افتتأ أصابع بمجرد، وكيف الجدّ تحطيم أغلال.

أجل، تحطيم الأغلال واجب على الأحرار. والإقدام على التحرُّر من الاحتلالات على أنواعها، يبدأ بإنقاذ الذات من عقد الخوف والتبعية. أوليس هذا البدء مقدّمة النهضة الحقيقيّة؟ كالقول في الأخطل الصغير:

جبألنا هي نحن: الريخ تضرُّها نقوى، وما يُعطِ قصفُ الرعدِ نختزِن،
عشنا هنا لا تُهمُّ، الفقرُ مرَّ بنا ومَرَّ مَنْ شَبِرُ أرضِ عَزَّه ففني
للفقرِ قلنا: استرخ، للمستبدِّ: أشخ، غداً على الرمل لا يبقى سوى الدِمن

- مقاومة العدوان والاستبداد

في طبيعة كلِّ نهوض أن يقاوم الظلم والاستبداد. في هذا الإطار، يقول شاعرنا:

أهلي ويغلون يغدو الموتُ لعبتهم إذا تطلَّع صوب السفح عدوانُ
من حَفْنَةٍ وشدا أَرزِ كِفايُتهم، زنودُهم، إنَّ تَقَلَّ الأرضُ، أوطانُ
هل جنَّةُ اللهِ إلَّا حيثُما هَنَيْتُ عيناك؟ كلُّ اتِّساعٍ بعدُ مُهْتانُ...
كنا ونبقى لأنا المؤمنون به وبعدُ فليَسعِ الأبطالُ ميدانُ

صحيحٌ أن لبنان يمتنع عن الاعتداء على الآخرين، لكنَّ ذلك لا يعفيه من واجب مقاومة الاعتداء عليه والظلم والفساد، أيًّا كان مصدره. لذا، قبل أن أحتم، أودُّ أن أدكر بلسان سعيد عقل المهاجرين عمَّا يتخلَّون بمغادرتهم لبنان. تقول أوروبَّا في تخلِّيها عن أرضها الأمّ:

وتخلَّيت، إيه، أين ضمَّة أمِّي،

في جوار الغمام، زرق الضياء

يركز بلادي على حدود السماء.

عن قرى من زمرد عالقات

يتخطَّين مسرح الشمس

لئن كان الواقع قد شوَّه الحلم، فالأمل لم يمت بإمكان إحياء الأصالة باستعادة الإيمان بالكلمة الحقِّ والثقة بفعلها في النفوس المتعطِّشة إلى من يحرِّرها من التبعية العمياء وأدرانها، ويجذبها إلى مثل هي الأجدى بتجسيد الحقيقة أكثر ممَّا تجسِّدها أوهام عابرة وتشوُّهات طارئة.

خاتمة

في أقصوصة من لبنان إن حكى بعنوان "مأساة فيتاغورس"، تقول والددة فيتاغورس لابنها: "جوّ لبنان سمّه بكلمة جديدة. "الحرّيّة" إن شئت. ولكن حمّل الكلمة أجمل المعاني. أن تكون شرط الحياة، شرط كلّ شرط". هذا هو الحلم الذي حاكه سعيد عقل وزرع بذوره في النفوس فأثمرت بواكيرها قبل انتفاضة أيّ سنونوة ربيعية في دنيا العرب.

أؤها السادة، هناك كيانات وقوميّات وإمبراطوريّات بنتها كلمات وأساطير وملاحم؛ بل هناك تغييرات جذريّة كالثورة الفرنسيّة أوجدتها آراء وأفكار؛ لكنّ الحقّ يُقال، توفّر لأحلام مبدعيها: الشعراء والمفكرين، قادة سياسيون وعسكريّون تلقّفوها فصنعوا منها حقائق واقعيّة. أين نحن من كلّ ذلك؟ ماذا فعل القادة الذين يصطفّ معظم اللبنانيين وراءهم بحلم سعيد عقل، لبنان المثال الواجب علينا جميعًا تحقيقه؟

أجل، أؤها الأصدقاء، كان لدى سعيد عقل رؤيا نبويّة وما يكفي من الجرأة لتجسيدها شعراً والالتزام بتبعاتها. وظّف طاقاته كلّها للدفاع عن قناعاته الوطنيّة التي كان من شأنها خلق تيار وطني ملتزم وتأمين المناخ الفكري والشعري والفلسفي المؤاتي له. أنمى أدب سعيد عقل العظيم، لاسيّما ذاك الذي واكبته الألحان الرحبانيّة وصوت فيروز الملائكي، إيماناً قوياً بلبنان ما لبث أن ترسّخ في قلوب أجيال وأجيال من أبنائه الأحرار، ما أعدّهم للدفاع عنه بوجه المعتدين حتّى الاستماتة والشهادة، ومكّنه من الصمود والبقاء على الرغم من المؤامرات والخيانات على أنواعها. هذا كان إسهامه الحاسم والمبكر في صياغة لبنان - الحلم، وضمن استمراره لأنّ المؤمنين به ما برحوا يتزايدون إلى حدّ الاقتراب من الشموليّة، بفعل استبطان الشعر الأصيل وتنامي الشعور والعزم والقناعة الوطنيّة.

في لبنان إن حكى، يطالعنا الأديب بشهادة لعلامة فرنسيّ في الحقوق باسم كولينه يقول فيها: "إنّ للإرث العريق فعاليّة دونها الكمال". أجل، فعاليّة الإرث أنّه ينشئ مسؤوليّة على الورثة استحقاقها والاضطلاع بمضامينها. فعسى أن تؤول بنا هذه المسؤوليّة إلى اجتراح إنجازات تليق بقدر المثال! فيغدو الحلم واقعاً والخيال حقيقة.